

دراسة نقدية لكتاب:

بسط التجربة النبوية

التأويل العبثي للوحي والنبوة والدين

للأستاذ الدكتور

محمد عمارة

عضو مجمع البحوث الإسلامية

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ

الأزهر

التأويل العبثي للوحي والنبوة والدين

دراسة نقدية لكتاب «بَسط التجربة النبوية»

لفضيلة الدكتور

محمد عمارة

عضو مجمع البحوث الإسلامية

هدية مجلة الأزهر لشهر جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(آل عمران : ٧)

«التأويل : هو صرف اللفظ من معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان هذا المحتمل الذى يراه موافقا للكتاب والسنة».

الشريف الجرجانى (٧٤٠ - ٨١٦ هـ / ١٠٧٧ - ١١٤٧ م)





«ومعنى التأويل: هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي..

والقصد من التأويل هو الجمع بين المعقول والمنقول»

أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٥٨م)

تمهيد
عن التأويل

مبحث التأويل من المباحث الدقيقة التى اختلفت فيها الآراء، سواء فى الفكر الإسلامى أو الأنساق الفكرية الأخرى، حتى لقد تمايزت فيه الحضارات، خاصة الغربية والإسلامية..

ولقد نشأت الحاجة إلى التأويل من احتواء ألفاظ اللغة على «الحقيقة» وعلى «المجاز».. وجاء الخلاف بين المفسرين للنصوص حول حمل اللفظ على معناه الظاهر، الحقيقى؟.. أم على معناه المجازى - غير الظاهر -؟.. وحول أى الموقفين هو الأدق فى الوصول إلى المعنى الذى أراده صاحب النص من وراء هذه الألفاظ؟..

ولقد زاد الخلاف بين الناظرين.. فى النصوص الدينية المقدسة، تبعاً لاختلاف مستويات النظر لدى هؤلاء الناظرين فهناك الذين تقنع أفهامهم البسيطة بما تعطيه ظواهر الكلمات والمصطلحات.. وهناك من تبحث عقولهم وأفهامهم، كى تقتنع وتستريح عن المعانى المجازية، الكامنة

وراء ظواهر الكلمات والمصطلحات..

ولقد ضاعف من الخلاف حول التأويل، أيضاً، اختلاف المقاصد لدى الناظرين فى النصوص الدينية المقدسة.. فهناك المؤمنون بقداسة هذه النصوص الباحثون، بإخلاص، عن المعانى الحقيقية والمضامين المناسبة التى جاءت بها هذه النصوص، والتى ترشحها السياقات التى جاءت فيها الألفاظ والمصطلحات.

وهناك الذين يريدون الفكاك من مقاصد هذا النصوص المقدسة، أما لعدم الإيمان بقداستها.. أو لانحرفات فكرية ومذهبية.. أو لما أصاب بعض هذه النصوص الدينية من تحريفات، ولما دخل مضامينها من خرافات.. جعلتهم يتخذون التأويل، الذى يصرف الكلمات عن معانيها الظاهرة إلى معانيها المجازية والباطنة، سبيلاً للفكاك من المقاصد والتكاليف التى جاءت فيها..

***

ولقد تحدث القرآن الكريم عن أن الله - سبحانه وتعالى - قد أنزل فى القرآن «المحكم» الذى لا يحتمل إلا معنى واحداً، والذى لا يجوز فيه التأويل.. كما أنزل فيه «المتشابه» الذى

يحتمل أكثر من معنى، إذ له ظاهر، هو حقيقته اللغوية، وله باطن هو مجازه اللغوى.

وأشار القرآن الكريم، فى الآية التى عرضت لهذه القضية، إلى الموقف الإسلامى إزاء «المحكم» و«المتشابه»، فأخبر أن الآيات المحكمات هى أم الكتاب، ولذلك فإن الموقف هو رد «المتشابهات» إلى «المحكمات». أى أن الصواب هو الجمع بين المتشابهات وبين المحكمات، وهو الذى عبر عنه علماء الإسلام بالجمع بين المنقول والمعقول.. وليس إحلال المعقول محل المنقول، أو العكس. ولا هو إحلال المتشابه محل المحكم، أو العكس.

لقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(آل عمران: ٧)



ولقد اختلف العلماء فى موضع «الوقف» فى هذه الآية، هل هو لفظ الجلالة «الله»، فيكون الله - سبحانه وتعالى - هو المتفرد بعلم التأويل والمآلات للمتشابهات؟.. أم أن موضع «الوقف» هو «الراسخون فى العلم»، فيكون لهم حق التأويل لمعرفة مآلات المتشابهات؟..

وإذا كان الجمع والتوفيق بين الآراء المختلفة، دون تلفيق، هو أسلم المناهج عند وجود الاختلافات، فإننا نستطيع أن نميز فى المتشابهات بين ما هو متعلق بذات الله وصفاته وعالم الغيب، مما لا تستطيع الملكات الإنسانية، التى هى نسبية الإدراك، أن تحيط بكنهه وجوهره ومآلاته، بل إن اللغة، التى هى مواضعات البشرية.. لا تستطيع التعبير عن الحقائق والكنه والجوهر والمآلات لهذه العوالم.. فذات الله ليس كمثلها شىء، وكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك.. وحقائق عالم الغيب هى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. والعقول الإنسانية، مهما بلغت عظمتها، تقف خاشعة أمام سرادقات مآلات هذه العوالم، مكتفية بما ضرب لها من الأمثال، لا حجراً عليها، وإنما عجزاً عن إدراك الكنه والجوهر والمآلات..

وذلك مصداقاً لقول الحارث المحاسبى (١٦٥ - ٢٤٣ هـ / ٧٨١ - ٨٥٧م)، وهو من أعاظم الذين انتصروا للعقل والعقلانية:

«وأعظم العاقلين عن الله، العارفين عقلاً عنه، ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز، أنهم لا يبلغون فى العقل والمعرفة كُنه معرفته»[1]

هنا، وبإزاء هذه العوالم، يكون الوقف فى الآية على لفظ الجلالة

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

أما إذا كانت المتشابهات مما جاء فى أحكام عالم الشهادة ومعارفه وعلومه، المطلوب من الراسخين فى العلم استنباط المراد منها:

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(النساء: ٨٣)

---

(١) الحارث المحاسبى «مائية العقل ومعناه» ص ٢٢٠، دراسة وتحقيق حسين القوتلى، طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

فهنا، فى متشابهات الأحكام والمعارف فى عالم الشهادة، يكون للراسخين فى العلم مجال فى التأويل لمعرفة الجوهر والكنه والمآلات.. ويصبح «الوقف» على:

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾

الذين هم، فى كل الحالات، يؤمنون بأن المحكم والمتشابه جميعها من عند الله.

***

ولقد تساءل البعض عن الحكمة من وجود المتشابه، الذى يحتاج إلى تأويل؟.. ولماذا لم يأت القرآن كله محكماً، لا يحتاج شىء منه إلى تأويل؟؟.. وكان الإمام البيضاوى (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) من الذين أجابوا على هذا التساؤل، فقال:

«إن فائدة وجود المتشابهات المحتملات، التى لا يتضح مقصودها إلا بالفحص والنظر، هو إظهار فضل العلماء، الذين يزداد حرصهم على أن يجتهدوا فى تدبرها، وفى تحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح فى استخراج

معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات العالى الدرجات» (٢).

فهو ميدان للاجتهاد والإبداع، ينمى العقلانية المؤمنة دائماً وأبداً.. وبه تظل الاكتشافات لأسرار القرآن وكنوز عجائبه مستمرة دائماً وأبداً.

***

ولقد كان مبحث التأويل من المباحث التى طرقها علماء الإسلام، من مختلف الفرق والمذاهب، وفيه تمايزت مواقفهم.. إن فى التعريف للتأويل.. أو فى الاقتصاد أو الإسراف أو التوسط فى استخدامه..

ومن أشهر الذين قدموا التعريف الدقيق للتأويل:

١- الشريف الجرجانى (٧٤٠ - ٨١٦ هـ / ١٠٧٧ - ١١٤٣م)، الذى عرّفه، ومثل له، فقال:

«التأويل، فى الأصل: الترجيع.. وفى الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل

---

(٢) البيضاوى (انوار التنزيل واسرارالتاويل) ص ٩١، طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ/ سنة ١٩٢٦م.



الذى يراه موافقاً للكتاب والسنة.. مثل قوله تعالى:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾

(الأنعام: ٩٥)

إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر كان تأويلاً..»[٣]

٢- أما ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨م)، فلقد عرف التأويل بأنه:

«إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب فى التجوّز، من تسمية الشىء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التى عُددت في تعريف أصناف الكلام المجازى.. والمقصد من التأويل هو الجمع بين المعقول والمنقول»[٤].

---

(٣) الشريف الجرجانى (التعريفات)، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م.

(٤) ابن رشد «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ص ٣٢، ٣٣، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٩٩م.



ومن هذين التعريفين الجامعين لمعنى التأويل، ولضوابطه، فى مجمل تراث الإسلام، يستبين التأكيد على ضرورة توفر الضابط الدينى والضابط اللغوى للتأويل، فليس كل تأويل بجائز، وإنما لا بد لصرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، أن يكون هذا المعنى مما يحتمله ظاهر اللفظ، وأن يكون هذا الاحتمال موافقاً للكتاب والسنة، أى للنصوص المحكمات.. لأن التأويل، فى جوهره، هو رد المتشابهات إلى المحكمات، والجمع بين المنقول والمعقول.. أو الجمع بين «المعنى» و«معنى المعنى»، بتعبير عبدالقاهر الجرجانى (٤٧١ هـ / ١٠٧٨م)[٥].

ولأن ابن رشد قد تبوأ مقعد فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء، فلقد وضع للتأويل «نظرية جامعة»، لعلها كانت، ولا تزال، من أحكم ما صيغ فى هذا المقام، ونحن نستطيع أن نوجز عناصر قانون التأويل ونظريته عند ابن رشد فى عشرة نقاط.. هى:

١- أن التأويل جائز.

---

(٥) عبدالقاهر الجرجاني، (دلائل الإعجاز) ص ٢٦٣، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.



٢- فى المواطن التى يقوم فيها البرهان على استحالة المعنى الظاهر من اللفظ.

٣- وبشرط تحقق شروط اللغة فى المجاز الذى تُخرج فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها.

٤- وفيما لم يثبت فيه إجماع يقينى على أن المراد هو ظاهر الألفاظ.

٥- وبترشيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل فى بعضها.

٦- ومن أجل الجمع بين المعقول والمنقول، لا المقابلة بينهما، والانحياز لأحدهما، تجاوزا للآخر أو نفيا له.

٧- على أن يظل التأويل حقا للخاصة، من الراسخين فى العلم، لا يُصرح به للعامة، ولا يثبت فى كتب الجمهور، حتى ولو كان تأويلا صحيحا، مستجمعا لشروط التأويل وضوابطه.. وبعبارة ابن رشد: (فهذا التأويل لاينبغى أن يُصرح به لأهل الجدل، فضلا عن الجمهور، ومتى صرح بشىء من هذه التأويلات لمن هو غير أهلها.. أفضى ذلك بالمصرح والمصرَّح إلى الكفر.. فلا يجب أن تثبت التأويلات الصحيحة فى الكتب الجمهورية، فضلا عن الفاسدة.. وأما المصرح بهذه

التأويلات لغير أهلها فكافر».

٨- أما أخبار عالم الغيب، وكذلك المعجزات، ومبادئ الشريعة، وكل ما لا يستطيع العقل الإنسانى الاستقلال بإدراك كنهه، فلقد أوجب ابن رشد أخذه على ظواهره، دون تأويل، لأن هذه العقائد، عنده، مما تُعلم بنفسها، بالطرق الثلاثة للتصديق: الخطابية، والجدلية، والبرهانية.. ولذلك كما يقول: لم نحتج أن نضرب له أمثالا، وكان على ظاهره لا يتطرق إليه تأويل، وهذا النحو من الظاهر إن كان فى الأصول، فالمتأول له كافر مثل من يعتقد أنه لا سعادة أُخروية ههنا ولا شقاء، وأنه قُصد بهذا القول أن يسلم الناس بعضهم من بعض فى أبدانهم وحواسهم، وأنها حيلة، وأنه لا غاية للإنسان إلا وجوده المحسوس فقط.. إن ها هنا ظاهرا من الشرع لا يجوز تأويله. فإن كان تأويله فى المبادئ فهو كفر، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة.

٩- وحتى الحكماء من الفلاسفة، برأى ابن رشد، لا يجيزون تأويل أخبار الغيب ومبادئ الشريعة والمعجزات.. ولا يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع، وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها

مبادئ وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يُسلم مبادئها، ولا يتعرض لها بنفي ولا إبطال، كانت الصناعة العملية الشرعية أحرى بذلك، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان، بل وبما هو إنسان عالم، ولذلك يجب على كل إنسان أن يُسلم مبادئ الشريعة، وأن يقلد فيها، فإن جحدها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان، ولذلك وجب قتل الزنادقة، فالذى يجب أن يقال فيها: إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية، فلابد أن يُعترف بها مع جهل أسبابها، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات، مع انتشارها وظهورها فى العالم، لأنها مبادئ تثبيت الشرائع، والشرائع، مبادئ الفضائل، ولا فيما يقال بعد الموت، فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية، كان فاضلاً بإطلاق، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم، فعرض له تأويل فى مبدأ من مباديها، فيجب عليه ألا يصرح بذلك التأويل، وأن يقول فيه كما قال تعالى:

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾

هذه حدود الشرائع وحدود العلماء.

١٠- ويرى ابن رشد أن الإفراط فى التأويل، بعد عصر الصدر

الأول للأمة، هو المسئول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التى شاعت وانتشرت «فالصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل «التى ثبتت فى الكتاب العزيز» دون تأويلات فيها، ومن كان منهم وقف على تأويل لم يصرح به.

وأما من أتى بعدهم، فإنهم لما استعملوا التأويل قل تقواهم، وكثر اختلافهم، وارتفعت محبتهم، وتفرقوا فرقاً، فيجب على من أراد أن يرفع هذه البدعة عن الشريعة، أن يعمد إلى الكتاب العزيز، فيلتقط منه الاستدلالات الموجودة فى شىء شىء، مما كلفنا اعتقاده، ويجتهد فى نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً، إلا إذا كان التأويل ظاهراً بنفسه، أعنى ظهوراً مشتركاً للجميع.. ذلك أنه لما تسلط على التأويل فى هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع، ولا تميز له الصنف من الناس الذى يجوز التأويل فى حقهم، اضطرب الأمر فيها، وحدث فيهم فرق متباينة، يكفر بعضهم بعضاً، وهذا كله جهل بمقصد الشرع وتعد عليه..»[6].

---

(٦) ابن رشد: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ص ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٣٢، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٤٧، ٤٨، ٦٥.. و(تهافت التهافت) ص ١٢٤، ١٢٥، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م و(مناهج الادلة فى عقائد الملة) ص ٥١، ٢٤٩، دراسة وتحقيق د. محمود قاسم. طبعة مكتبة الأنجلو، القاهرة.



هكذا وضع ابن رشد قانوناً للتأويل، وشروطاً لجوازه، قصرته على ما وراء العقائد ومبادئ الشريعة وأخبار الغيب والمعجزات.. وجعل التأويل فيما وراء ذلك مشروطاً بتوفر الضوابط اللغوية، وبشهادة النصوص المؤولة على أن فيها تأويلاً ظاهراً بنفسه للجميع.

***

وجاءت مدرسة الإحياء والتجديد فى العصر الحديث، فتبنت هذا المنهاج المضبوط فى قضية التأويل، وقال رائدها جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م):

(فالحق: أن لا يُهمل النظر، وأن يكون التأويل على حظر، وهذه رتبة الراسخين فى العلم، الذين وقفوا على الحقائق بصفاء عقولهم، ثم يقبلون ما جاءهم من ربهم، مع عدم الاستطلاع لما هو دفين تحت حجب أستاره)[٧].

***

(٧) جمال الدين الأفغانى (الأعمال الكاملة) ج ١، ص ٣٨٩، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.



لكن تراثنا الإسلامى قد عرف ألواناً أخرى من التأويل للنصوص، لم تلتزم بهذه الضوابط التى وضعها جمهور علماء الإسلام.

فهناك التأويل الباطنى، الذى سلكت طريقه الفرق الباطنية الشاذة، تلك التى ادعت أن لكل تنزيل تأويلاً ولكل ظاهر باطناً.. والتى انفلتت من كل ضوابط التأويل، فأفرغت الدين من حقائق الدين.

● فالإسماعيلية، مثلاً، تنسخ الظاهر بالباطن، حتى أنها تحل شريعة الباطن محل شريعة الظاهر التى جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله ﷺ باعتبارها «الظاهر» الذى تُحل محله «الباطن» فتزعم «أن الإمام محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع وأن الإمام الناطق السابع هو ناسخ عهد، وفاتح لعهد جديد، وهو صاحب شريعة، ولكن ليس معنى أنه ناسخ عهد، أنه ناسخ شريعة، فهو لا ينسخ شريعة محمد ﷺ بل يؤكدها ويظهر باطنها، بمزيد من التأويل والكشف عن حقيقة التوحيد، فهو - كما قال الإمام المعز لدين الله الفاطمى (٣١٩ - ٣٦٥هـ/ ٩٣١-٩٧٥م):

«عُطلت بقيامه ظاهر شريعة محمد، لما كان لمعانيها مبيناً،



ولأسرارها كاشفا ومجليا» فالنسخ يتعلق بظاهر الشريعة لا بباطنها»(٨).

فهو تأويل ناسخ للظاهر، كل الظاهر!

● والنصيرية.. يصل بها تأويلها إلى حيث تصف الإمام على بن أبى طالب بأنه «أحد» صمد، لم يولد ولم يلد، وأنه قديم لم يزل، وجوهره نور. ومن نوره تسطع الكواكب. وهو نور الأنوار، تجرد عن الصفات. يشق الصخور ويسجر البحور، ويدبر الأمور، ويخرب الدول، خفى الجوهر، وهو معنى. وهو الذى خلق محمدا، وسماه «الاسم» ومحمد هو حجاب على ومسكنه، ومحمد خلق سلمان الفارسى من نور نوره، وجعله «بابا» له، والمكلف بنشر دعوته، ومن حروف بداية هذه الأسماء الثلاثة يتكون «عين - ميم - سين» - وهى قسم المستجيب لدعوة النصيرية.. وهناك خمسة أيتام (أى لا نظير لهم) هم: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفارى، وعبدالله بن رواحة الأنصارى، وعثمان بن مظعون، وقنبر بن كدان الدوسى، وهم الصدورات الخمسة

---

(٨) عبدالرحمن بدوى (مذاهب الإسلاميين) جـ ٢ ص ٢٩٣، ٢٩٤، طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

الإلهية والنجوم الخمسة الذين توجه إليهم الصلوات الخمسة اليومية..»[9]!!

● والدروز: تؤول الظاهر بالعذاب، والباطن بالرحمة:

﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(الحديد: ١٣)

وتجعل لكل «ناطق» أساسا، والأساس يؤول ما جاء به الناطق.. والنطقاء - أصحاب الظاهر هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد.. ولكل واحد منهم أساس يؤول الظاهر الذى جاء به..

فأساس نوح: سام، وأساس إبراهيم: إسماعيل، وأساس موسى: يوشع بن نون من بعد هارون، وأساس عيسى: شمعون، وأساس محمد: على بن أبى طالب.

ويؤولون السماوات السبع بالأئمة السبع المستورون..

---

(٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٥، ٤٦٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٨٢، ٤٨٧، ٤٨٨. وهو ينقل عن كتاب (مجموع الأعياد والدلالات والأخبار والمبهرات) لأبى سعيد يمون بن القاسم الطبرانى.

فسماء الدنيا : إسماعيل بن محمد . . والسماء السابعة : قيام عبدالله المهدى بالأمر . . ثم ظهور الحاكم بأمر الله(١٠) ! !

هكذا بلغت الفرق الباطنية بالتأويل هذا الحد الشاذ . . الذى انفلت من كل الضوابط فنسخ الدين ، وأهدر المنقول والمعقول جميعا !

وعلى الرغم من أن المادية هى نقيض الباطنية . . إلا أن النزعتين ـ المادية والباطنية كليهما تصلان ـ فى التأويل للنصوص الدينية إلى ذات النتيجة .

ـ فالمادية ، تفرغ النص الدينى من حقيقته الروحية لحساب الإغراق فى المادية .

ـ والباطنية ، تفرغ النص الدينى من حقيقته الماديه لحساب الإغراق والغلو فى الباطنية والروحانية . . وفى الحالتين يتم تفريغ النص الدينى من المعانى الوسطية الجامعة للمنقول والمعقول . . للحقيقة والمجاز .

● ولقد عرفت الحضارة الغربية ، منذ جاهليتها اليونانية ، مباحث التأويل ـ الهيرمينوطيقا **Hermeneutics** ـ . .

---

(١٠) المرجع السابق . جـ ٢ ص ٦٩٤ ـ ٦٩٦ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ .



وبسبب من الطابع المادى لتلك الحضارة كان التوجه الأساسى للتأويل فيها هو تفريغ الألفاظ من روحها لحساب جسدها .. من روحانيتها لحساب ماديتها وذلك للتخلص من قداسة هذه النصوص ذات القداسة والسلطان.

ولقد ابتدع التأويل الغربى - كى يستبيح النصوص الدينية - نظرية «موت المؤلف».

- وطبقها فلاسفة التنوير الوضعى اللادينى على الكتب المقدسة - وذلك «لأنسنة» الدين والكتب المقدسة، ولجعل القارئ هو «منتج النص» وليصبح هناك - عمليا - عدد من النصوص بعدد القراء الذين يتلقون النص الواحد !![11].

● ولقد انطلق عدد من الكتاب المسلمين، دعاة التنوير الغربى والفلسفة الوضعية اللادينية، من نظرية «موت المؤلف»، وأنسنة الدين والقرآن الكريم والوحى والنبوة، إلى ألوان من التفسير المادى للوحى والنبوة والدين، بلغت فى الغلو والغرابة والشذوذ الحد الذى نافست فيه التأويلات الباطنية القديمة !.

---

(١١) سيزا قاسم (القارىء والنص: العلامة والدلالة) ص ١٢٤، ١٢٥، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٢ م.

- فرأينا من يؤول الإلهيات بالإنسانيات! ويحول العلم الإلهي إلى علم إنساني! ويجعل الميتافيزيقي فيزيقي.. ويحول الدين إلى أيديولوجية، وإلى فكر إنساني!.. ويقول: إن الإيمان هو الإلحاد!

- ومن يجعل الصفات الإلهية صفات للإنسان الكامل!

- ومن يؤول اللوح المحفوظ بتدوين العلوم!

- ومن يجعل النبوة قوة مخيلة!

- ومن يؤول الذات الإلهية بالكفاح المسلح والإصلاح الزراعي!!

إلى آخر هذه التأويلات، التي انفلتت من الضوابط اللغوية والدينية للتأويل.. فوصلت إلى قمة العبث اللا معقول واللا مقبول»[١٢]

في ضوء هذه الحقائق عن التأويل.. ومذاهبه وتياراته.. نقدم هذه الدراسة النقدية لكتاب الدكتور عبدالكريم سروش

---

(١٢) انظر ـ في تفصيل كل ذلك ـ كتابنا (قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي) طبعة مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة سنة ١٤٢٧ هـ، سنة ٢٠٠٦ م

(بسط التجربة النبوية).. والذى مثل نموذجا للتأويل المادى المغلف بالعرفانية الباطنية للوحى والنبوة والدين.

وذلك لفهم هذه النزعات.. ولتحصين العقل المسلم ضد هذه الانحرافات والهرطقات.

سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذه الدراسة.. إنه خير مسئول.. وأكرم مجيب.

د. محمد عمارة

***

(١)
الكاتب

مؤلف هذا الكتاب [١٣] هو الأستاذ الدكتور عبدالكريم سروش: مفكر إيرانى مرموق.. وله حضور فى إطار اللغة الفارسية وخارجها.. وهو على خلاف مع الفكر الشيعى الإمامى الإثنى عشرى حول الحكومة وولاية الفقيه، وحول كثير من المقولات والعقائد التقليدية للشيعة.

وللدكتور سروش حضور كذلك وقبول وحفاوة فى الأوساط العلمانية والحداثية ـ الغربية والشرقية ـ.

وهو لا يحتل موقعاً رسمياً ولا شبه رسمى فى دولة ولاية الفقيه الإيرانية، ولا فى جامعاتها أو مؤسساتها الثقافية.. ويتخذ من منزل أحد أتباعه ومريديه منتدى ـ أسموه «المحمدية» ـ على نمط «الحسينية»، يلقى فيه محاضراته ويعقد فيه ندواته، ويجرى فيه حواراته..

ومن كتبه الشهيرة. «القبض والبسط» و«الصراطات المستقيمة» وهذا الكتاب موضوع هذه الدراسة.

وقارئ كتب الدكتور سروش يلمس ثقافة واسعة فى الفكر العرفانى والصوفى وفى الفكر الغربى على حد سواء

---

(١٣) كتاب «بسط التجربة النبوية» ترجمة: أحمد القبانجى، طبعة دار الانتشار العربى، بيروت سنة ٢٠٠٩م. وصفحاته ٣٤٧ صفحة.



(٢)
المدرسة الفكرية

ومن خلال هذا الكتاب «بسط التجربة النبوية» تستبين «المدرسة الفكرية» لصاحبه، وهى مدرسة التأويل لحقائق الدين، وتحويلها إلى مجازات غير مضبوطة بقواعد التأويل العربى والإسلامى، حتى ليفرغ هذا التأويل الدين من حقيقة الدين وثوابته التى تعارفت عليها مختلف الفرق الإسلامية، باستثناء الباطنية فى تراثنا القديم، ومعهم فلاسفة التنوير الوضعى المادى العلمانى فى الفكر الغربى.

وهذه المدرسة تجعل لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، وتنفى وجود أية حقائق أومعانى ثابتة فى النص الدينى.

ومن رموز هذه المدرسة، التى ينتمى إليها الدكتور سروش.. والذين أبدى إعجابه بهم، فى هذا الكتاب:

- د. نصر حامد أبوزيد «١٤٣١ هـ / ٢٠١٠م» الذى حكم القضاء المصرى عليه بالردة سنة ١٩٩٥م.
- ود. محمد أركون «١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠م»، الذى قال عنه الدكتور على حرب: إن الحداثة عنده معناها تحرير العقل

وهى أفكار فى التفسير المادى للوحى والنبوة، يتفق فيها سروش مع أركون ونصر أبوزيد وحسن حنفى.. وإن غُلِّفت هذه الأفكار بالغلاف «العرفانى - الباطنى» عند سروش فهم يجتمعون على «أنْسنة الدين» و«بشرية الوحى والقرآن» وعلى أن النبوة تجربة بشرية عرفانية.. وعلى نفى أن يكون للوحى مصدر إلهى سماوى، ووجود سابق فى الغيب واللوح المحفوظ.

ويشير الدكتور سروش إلى مصدر آخر لفكره حول «اعتبار الوحى ظاهرة تنطبق مع المحيط، وتقتبس لونها، وصبغتها من البيئة بشكل كامل».. وهذا المصدر هو نظرية «دارون» (١٨٠٩ - ١٨٨٢م» فيقول:

إن نظريته، أى نظرية سروش، مستوحاة من نظرية دارون»[١٧].

تلك هى المدرسة الفكرية للدكتور سروش، الذى يتميز بالإبحار فى الفكر العرفانى.. الباطنى، وخاصة الفارسى منه، لا لأنه أحد العرفاء، وإنما ليغلف النزعة المادية فى تفسير الوحى والنبوة والدين بغلالة عرفانية تسوغه لدى قطاعات من المتدينين!

---

(١٧) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣)
بشرية الوحى والنبوة

والفكرة المحورية التي تدور حولها المقالات والمحاضرات والحوارات المكونة لصفحات هذا الكتاب «بسط التجربة النبوية» هي تصوير النبي ﷺ في صورة «العارف الذى بلغ مرتبة عالية ومتميزة بين العارفين، والذى امتلك قدرة الكشف»، نتيجة لرياضاته الروحية، فاطلع على بعض أسرار الغيب.. والذى عندما «تغلى شخصيته» يفرز هذا الغليان الوحى والقرآن والرسالة.. فالتجربة النبوية فى هذا الكتاب هى تجربة «العارف - النبى» الذى تنتج شخصيته وتفرز ـ عندما تغلى ـ أى تبلغ ذروة الكشف تنتج وتفرز القرآن.. فالقرآن والوحى والرسالة كلها تابعة لشخصية النبى.. وجميعها بشرية.. فليس هناك تنزيل من أعلى، ومن وراء الطبيعة والواقع البشرى، وإنما نحن أمام منتج نبوى بشرى، يخضع للتاريخية والتاريخانية.. أى أن مضامينه ومعانيه وأحكامه مؤقتة، ومرتبطة بالواقع الثقافى الذى ظهر فيه، والذى هو ثمرة له وانعكاس للحوادث والجدل والمقولات التى

شـهـدها هذا الواقع.. فـالوحى والدين «بناء فـوقى» للواقع المادى والاجتماعى الذى ظهر فيه.. فهو ـ بتعبير نصر أبوزيد ـ «ديالكتيك صاعد».. أى ليس تنزيلا من فوق.. ومن ثم فهو تاريخى، ككل ألوان الفكر التى يفرزها الواقع.

وبنص عبارة الدكتور سروش:

«عندما يوسوس الشيطان فى واقع الإنسان وعمقه الداخلى فكأنه يوحى إليه، والأنبياء بدورهم يتعرضون لـ «وسوسة الملك».. ثم تعرض عليهم الكشوفات.

ولو رفعنا عبارة «التجربة النبوية» ووضعنا بدلا منها «الكشف النبوى» فلا نجد تفاوتا بينهما.. ومن خلال هذا الكشف يتعرف النبى إلى حقائق وأسرار عالم الغيب.. وربما يحصل مثل هذا الكشف للآخرين، غاية الأمر أن كشفهم ناقص وغير تام، وضبابى.. بينما كشف النبى تام.. فالنبى نفسه يمكن أن يصل إلى فكرة معينة ويدرك فى نفسه كشفا عن حقيقة معينة، ويكون هذا الكشف إلهيا ويطلق عليه اسم الوحى.. إن الوحى نوع من الإشراق الذى يحدث للنبى ويحيط به دائما ويقوده فى مسيرته فيخط الرسالة.. إن الوحى ليس شيئا سوى نوع من الإدراك الخاص للنبى.. لقد



كانت شخصية النبي بمثابة الخزانة التي تحوي أسرارا وعلوما.. وهذه الشخصية عندما تغلي وتفور يطفح الوحي الإلهي من مطاوي كلماتها، بمعنى أن ما يقدمه النبي من معارف الوحي للآخرين عبارة عن غليان بركان وجوده المؤيد والمسدد، وقطرة من بحر معارفه، ولذلك فإن هذا الغليان وهذا الكلام الوحياني يكون تابعاً وليس هو تابعاً لهذا الكلام.. لقد كان النبي يمارس رياضة مدة أربعين سنة، ثم تجلت للنبي حقيقة النبوة، وصار منورا كبوذا..» !! [18].

ولأن الدكتور سروش قد رفض أن يكون الرسول ﷺ بشرا يوحى إليه من السماء، ومتلقياً للوحي ومأموراً به وتابعاً له، وادعى أنه «بشر - عارف» و«كاشف» تغلي شخصيته فتفرز الوحي النابع منها والتابع لها.. أي عزل السماء وأسقطها من الحسبان..

فلقد ذهب فتحدث عن معنى «الإنسان الكامل» الذى وضع النبي ﷺ، في إطاره فإذا به يؤله النبي، كي يكون هو المصدر لكل شيء، الوحي والقرآن والرسالة. لقد أنزل

---

(١٨) المرجع السابق، ص ١٩٧ - ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٧، ٣٤٣، ٣٤٢، ٢٢٢.



السـمـاء إلى الأرض ـ أرض النبى ـ بدلاً من أن يجعل النبى متلقياً لنبأ السماء، ومبلغاً له، ومبيناً وملتزماً به..

وفى هذا «الفكر»، فليس الله - سبحانه وتعالى - هو الذى يرسل جبريل ـ الذى اصطفاه من ملائكته رسولاً إلى النبى، وإنما النبى هو الذى «ينزل جبريل»!.. وفى ذلك يقول الدكتور سروش: «إن معنى أن يكون النبى هو الذى يُنزل جبريل عليه، هو أن دائرة وجود النبى على درجة من السعة والامتداد بحيث إنها تستوعب جبريل أيضاً فى واقعها، والتجربة النبوية على قدر من السعة والامتداد، بحيث إنها مستوعبة تجربة جبريل فيها، وهذا هو معنى الإنسان الكامل، أى هو الوجود الذى يمثل مظهر الاسم الجامع، وهو محيط بطبقات وعوامل ومراتب جميع الوجودات؛ ولذلك تقع أشكال الحركة والذهاب والإياب فى باطنه لا فى خارجه، فهو الفاعل والآمر لا «المنفعل»[19].

ويذهب الدكتور سروش على درب تأليه النبى، كى يستقل عن السماء، وكى يكون هو الذى ينزل جبريل ـ

---

(١٩) المرجع السابق، ص ٣٤٥.



وليس الله هو الذي يُنزل جبريل ـ وكي يكون النبي ﷺ، هو منبع الوحي ومنتجه ومفرزه لا متلقيه.. يذهب على هذا الدرب محاولاً الاستدلال ـ على هذه «الهرطقة» المغلفة بالعرفان.. يقول الله - سبحانه وتعالى - لرسوله:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(الأنفال: ١٧)

فيقول:

عندما يكون رمي النبي هو رمي الله تعالى، فيكون أيضاً قول الله تعالى: ومن هنا فإن فهم النبي بدوره هو فهم الله، والوحي ليس شيئا سوى نوع من الإدراك الخاص للنبي»[٢٠]

ويتجاهل الدكتور سروش:

- أن ليس كل رمي للنبي هو رمي الله.

- وليس كل قول للنبي هو قول الله. فهناك أقوال للنبي ﷺ فيما هو فيها مجتهد لا مبلغ.. وفيها يصيب ويخطئ.. وفي أقواله ما هو تشريع بما أراه الله، وما هو سنة غير

(٢٠) المرجع السابق. ص ٣٤٣.



تشـريعيـة .. أو سنة عـادة وجبلّة .. وهي أقـوال لا يصح أن يقال : إنها قول الله .

- ثم إن الآية :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

تعنى أن الأصل هو رمى الله الذى سـدد رمى الرسـول ، فـرمى الرسـول تابع لرمى الله ، وليس العكس ، كـمـا قـال الدكتور سروش .

لقد أراد الرجل - فى «هرطقته العرفانية» هذه أن يجعل النبى مستقلاً عن السماء ليصل إلى بشرية الوحى والقرآن والرسالة ، ومن ثم تاريخيتها ، فوقع فى خطيئة تأليه النبى ﷺ ، وجعله المحيط بطبـقـات وعـوامل ومـراتب جـمـيـع الوجودات .. فـهو الفاعل والآمر فى جميع هذه الوجودات التى تقع فى باطنه لا فى خارجه .. أى أنه قد أنسن الألوهية عندما أراد أن يؤنسن النبوة والوحى والدين !

وكى يجعل الوحى تابعاً للنبى - بدلا من العكس - ذهب - على درب هذه «الهـرطقـة» - فـجـعل فـعل الله تابعـا لفـعل النبى .. وقول الله تابعاً لقول النبى !!



تلك هي الفكرة المحورية التي دارت حولها مقالات ومحاضرات وحوارات الدكتور سروش في هذا الكتاب.

وإذا شئنا أمثلة أخرى من نصوص الكاتب التي يلح فيها على تأكيد هذه الفكرة المحورية لهذا الكتاب فسنجده:

يتحدث عن «بشرية وتاريخية الدين والتجربة النبوية والوحي.. ويؤكد أن الوحي والرسالة تابعان لشخصية النبي[21]

وينكر مفارقة النبوة للبشرية، ويقول عن الآية القرآنية:



(الكهف: ١١٠)

«إنها لم تقرر أن النبوة فوق مقتضى البشرية»[22]

● كما يعتبر أن كتابه هذا، الذي لا يرى في الرسول غير البشرية، قد جاء رداً على ما زعمه من أن الثقافة الإسلامية نظرت إلى النبي كملك، وأهملت الجانب البشري فيه..»[23].

● ويتكرر في الكتاب الإلحاح على بشرية القرآن الكريم،

(٢١) المرجع السابق. ص ٧.

(٢٢) المرجع السابق. ص ٨.

(٢٣) المرجع السابق. ص ٨، ٩.

الذى أنتجه النبى البشر العارف، فى حالة الكشف، ولحظة غليان الشخصية. كانعكاس للواقع الذى عاش فيه النبى.. ولذلك، فإن هذا القرآن - برأى الدكتور سروش - كان من الممكن أن يكون حجمه أكبر من هذا لو امتد عمر النبى مدة أطول، وزادت مواجهاته مع الواقع، كما أن حجمه كان من الممكن أن يكون أقل من هذا لو أن عمر النبى كان أقصر، ومواجهاته مع الواقع - الذى أنتج النص - كانت أقل.

وحول هذا «العبث الفكرى» يقول سروش:

«فلو أن النبى استمر فى حياته، وكان له من العمر أكثر مما كان، وواجه من الحوادث والتحديات أكثر مما وقع، فمن الطبيعى أن تزداد ممارساته ومواجهاته للحوادث، وهذا يعنى أن القرآن كان بإمكانه أن يكون أكثر فى حجمه من هذا القرآن الموجود» (٢٤).

«إن الدين يمثل خلاصة وعصارة التجارب الفردية والجمعية للنبى» (٢٥)..

---

(٢٤) المرجع السابق. ص ٣٨ وص ١٦٣.
(٢٥) المرجع السابق. ص ٤٥.

«وبإمكان القرآن أن يزداد حجمه فيما لو فرضنا أن النبي قد امتد به العمر أكثر مما كان، وهذا يعنى أن حجم الهداية النبوية وبيان التعاليم السماوية سيكون أكثر مما هو موجود فعلا..»[26].

والدكتور سروش يتجاهل ـ بهذا الكلام الغريب والعجيب ـ الحقائق القرآنية التي تقول:

ـ إن القرآن ـ كما هو ـ إنما كان نصا موجودا ومحفوظا فى اللوح المحفوظ، قبل أن ينزل به جبريل على رسول الله ﷺ .. وأنه قد نزل منجماً ومفرقا لا بسبب صدوره عن الحوادث التى جرت فى زمن البعثة ومجتمعها، وإنما ليثبت الله به فؤاد رسوله ﷺ أمام التحديات الشرسة التى واجهت الدعوة الإسلامية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾

(الفرقان: ٣٢)

---

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٦٣.



فالذين كفروا يعرفون أن القرآن تنزيل، وليس منتجا بشريا أثمرته وقائع مجتمعهم.. لكنهم كانوا يريدون نزوله جملة واحدة.. والله - سبحانه وتعالى - يفصح عن حكمة تنزيله منجماً، وهي التثبيت الدائم والمتواصل لفؤاد الرسول ﷺ وتقول الآية:

﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

ـ ويتجاهل الدكتور سروش أن ما جاء في القرآن الكريم من آيات واكب نزولها «مناسبات» لهذا النزول ـ سماها البعض «أسباب» النزول ـ لم تكن ثمرة لهذه الحوادث والمناسبات ـ وإلا لاختصت هذه الآيات وأحكامها بمن نزلت فيهم وبسببهم دون غيرهم من الجماعة المؤمنة ـ.. ومثلها الآيات التي جاءت أجوبة على أسئلة سُئلها الرسول ﷺ .. وإنما كانت هذه الآيات ـ التي لها مناسبات نزول ـ والتي لا يتعدى عددها ـ عند الواحدي النيسابوري (٤٦٨ هـ ١٠٧٦ م) ـ وهو من أشهر من كتب في (أسباب النزول) ـ لا يتعدى عددها ٤٧٢ آية، من ٦٢٣٦ آية ـ هي مجموعة آيات القرآن الكريم ـ أي أن الآيات التي لها مناسبات نزول نسبتها إلى آيات القرآن لا تتعدى ٧,٥٪ من آيات القرآن الكريم.



ولقد كانت هذه الآيات ـ كغيرها ـ جزءاً من الذكر الذى نزل من اللوح المحفوظ. كما أن الأحداث التى اقترن بها نزول هذه الآيات لم تكن المنتج لهذه الآيات، وإنما هى أحداث سبق علمها فى العلم الإلهى الكلى والمطلق والمحيط، فأنزل الله فيها هذه الآيات لتكون تشريعاً عاماً ـ لا خاصاً بمن نزلت فيهم هذه الآيات ـ وثابتا وخالدا.. مثلها كمثل الآيات التى قصت قصص الأولين.. والتى استشرفت القادم من الأحداث.. جميعها جزء من الذكر الحكيم ونبأ السماء العظيم، السابق وجوده وحفظه فى اللوح المحفوظ، والذى نزل منجما لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ.. وليست حادثة مضافة كنتيجة لحوادث ومناسبات النزول.

***

وحتى يبرر الدكتور سروش «كلامه» هذا عن إمكانية زيادة القرآن أو نقصانه تبعاً لعمر الرسول والأحداث التى وقعت فيه.. ذهب فأنكر اكتمال الدين الذى نزل به القرآن الكريم.. فزعم أن الآية التى تقول:


﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾

(المائدة: ٣)



لا تعنى اكتمال الدين، وإنما تعنى ـ برأيه ـ اكتمال الحد الأدنى ـ لا الحد الأعلى ـ للدين!!..[٢٧].

وهذا «الكلام» الغريب والعجيب يتجاهل أن القرآن الكريم كتاب قد أحكمت آياته وفصلت تفصيلا.. فليس له حد أدنى وحد أعلى.. ومواكبة ما يستجد من حوادث بعد اكتمال الدين واكتمال الوحى القرآنى إنما تتم بالفقه الذى يقيس المستجدات على ما ورد فى النص المحكم ـ الذى بينته السنة النبوية ـ من مناهج وقواعد ونظريات وأحكام وفلسفة للتشريع..

إن محكمات الدين ـ التى جاءت بها محكمات آيات القرآن الكريم ـ هى ثوابت، لا علاقة لها بالجدل الذى دار مع التحديات فى التجربة النبوية.. والجدل مع هذه التحديات والحوادث هو أشبه بالفقه والسياسة والفروع التى مرجعها ومرجعيتها ثوابت الدين ومحكمات الآيات.

وكى يهرب الدكتور سروش من حقيقة قطع القرآن الكريم باكتمال الدين:

---

(٢٧) المرجع السابق. ص ٤٥ ـ ٤٧.



﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾

ذهب ليفرق بين «اكتمال» الدين ـ الذى قطع به القرآن ـ وبين «شمول» الدين ـ الذى جاء به الرسول ﷺ فقال:

«فى مسألة كمال الدين.. هناك فرق بين الكامل والجامع. الجامع يعنى الشامل لكل شىء.. ولكن الكامل يعنى أن هذا الدين لا ينقصه شىء من الأدوات والمفاهيم والتعاليم بالنسبة لما يريد تحقيقه على أرض الواقع البشرى وفيما يهتم به لتحقيق رسالته.. فالدين كامل لا جامع، وهذا الكمال يمثل الحد الأدنى فى عالم الثبوت لا الحد الأعلى فى عالم الإثبات»(٢٨).

أى أن الرجل أراد أن يقول بكمال الدين بالنسبة للواقع النبوى، وبعدم كماله وشموله لما يأتى من الزمان والمكان ـ بعد العصر النبوى..

ولو أخلص الدكتور سروش للحقيقة التى تعلن أن القرآن الكريم قد جمع وشمل ثوابت العقيدة والشريعة ومنظومة

---

(٢٨) المرجع السابق. ص ١٦٤ ـ ١٦٦.



القيم والأخلاق.. ومعالم عالمى الغيب والشهادة.. وأنه قد رسم معالم المناهج التى تفتح أبواب العقل والفكر لمواكبة كل المستجدات عبر الزمان والمكان.. وأنه قد وضع المناهج والقواعد والنظريات وفلسفة التشريع لكل ما يأتى به الزمان.. لو أخلص الدكتور سروش لهذه الحقيقة التى تجلت وتجسدت فى القرآن الكريم، لأدرك وأعلن أن هذا الدين ـ بهذا المعنى ـ قد جمع بين الكمال وبين الشمول.. ولذلك، فإن القرآن الكريم كما قال:

﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾

قال ـ أيضا ـ:

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

(الأنعام: ٣٨)

ويشهد على هذا الذى نقول: أن الأمة التى تدينت بهذا الدين عندما خرجت من طور السذاجة الحضارية، وبنت إحدى أعظم الحضارات الإنسانية، إنما صنعت ذلك انطلاقا من الدين والقرآن، ولم يحدث أنها شعرت بنقص فى هذا الاكتمال والشمول.. لقد أبدعت الجديد، بواسطة المعارف والعلوم التى



حث عليها هذا الدين، والتي ضبط مناهجها هذا الدين.. ولو كان الدكتور سروش فاقها لمعنى إحكام الكتاب الذى:

﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

(هود: ١)

لعلم أنه نص كامل فى إحكامه، ومحكم فى تفصيله.. وإلا فكيف يكون كتابا قابلا للزيادة والنقصان وقد جاء نصه مقسماً إلى أربعة أرباع يبدأ كل ربع منها بـ (الحمد لله).. فالربع الأول يبدأ بـ:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(الفاتحة: ٢)

والربع الثانى يبدأ بالأنعام

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(الأنعام: ١)

والربع الثالث يبدأ بالكهف:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(الكهف: ١)

نظرية الدكتور سروش ـ أن تنتج المزيد والمزيد والمزيد من حجم هذا القرآن ؟!.

وإذا كانت أحداث مجتمع بسيط ـ هو مجتمع النبوة ـ قد أنتجت ـ في ثلاثة وعشرين عاما ـ ٦٢٣٦ آية هي حجم «الحد الأدنى» للقرآن ـ كما يقول سروش ـ فكم هو حجم القرآن الذي كان مفترضاً ـ على رأى الدكتور سروش ـ أن تنتجه أحداث وتحديات خمسة عشر قرنا، في مجتمعات بلغت شأناً بعيدا في التعقيدات والتحديات ؟!.

أم أن رب العباد ـ حاشاه وتنزه ـ قد تخلى عن عباده، فتركهم للزمان وتحدياته دونما هداية ولا حجة ولا تسديد ؟!..

وإذا كان الدكتور سروش ـ كما سيأتي في الحديث عن «هرطقاته» ـ قد قال باستمرار النبوة بعد محمد ﷺ لأن باب الهداية الإلهية لم يغلق.. فلماذا لم يقم هؤلاء «الأنبياء» الذين «رخص» لهم الدكتور سروش ـ لماذا لم يقوموا بزيادة حجم القرآن الكريم عن حده الأدنى الذى جاء به رسول الله ﷺ ؟!..

ثم.. هلا قرأ الدكتور سروش ـ في كمال الدين

واكتماله.. وفى شموله ووفائه ـ قول إمام التجديد فى العصر الحديث الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م):

«إن الإسلام دين وشرع، جاء كمالا للشخص، وألفة فى البيت، ونظاما للمُلْك، امتازت به الأمم التى دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه»(٢٩) «وأن أحكام الشريعة وافية بسد حاجات طلاب العدل فى كل زمان ومكان، مع اليسر ورفع درجة الحرج الذى تكفل الله برفعه عن هذه الأمة إلى أن تنقضى الدنيا»(٣٠).

فالدين كامل وشامل، ووافى بسد حاجات طلاب العدل فى كل زمان ومكان، وحتى انقضاء الدنيا..

هلا قرأ الدكتور سروش هذا ـ ومثله كثير وكثير وكثير..؟!.. أم أن الأمر أمر «نظريات» هى أقرب إلى الهزل، الذى لا يليق بمفكر يتحدث عن القرآن الكريم؟!..

---

(٢٩) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٣ ص ٢٢٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م. وطبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ٢٠٠٦ م.

(٣٠) المصدر السابق. جـ ٢ ص ٢٥١.



ويذهب الدكتور سروش ليعيد التأكيد على «أن القرآن هو منتج وحيانى من النبى» [31] مخالفاً ما أجمعت عليه أمم الديانات السماوية ـ بأحبارها وقديسيها وعلمائها وعرفائها ـ من أن الوحى تنزيل أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الرسول ﷺ ؛ ليبلغه الرسول إلى الناس..

يذهب الدكتور سروش ليدعى أن الوحى منتج نبوى، تابع للنبى، فيقول:

«إن الوحى تابع للنبى، ومتناسب مع محيط النبى، ومتناسب مع الحوادث الواقعة فى زمن النبى، ومتناسب مع مزاج وعقلانية قومه، ومتناسب مع الأجواء والأمثلة والثقافة التى كانوا يعيشونها» [32].

وفى هذا الكلام الغريب والعجيب ـ الذى لا تستسيغه حتى المادية الجدلية ـ مناقضة للبديهيات التى تقول: إن الوحى إنما جاء ليضيف إلى شخصية النبى ﷺ وإلى علمه.. وليزيده علماً، وليعلمه ما لم يكن يعلم.. ولم يكن هذا الوحى مجرد إفراز ومنتج نبوى.. كما أن هذا الوحى إنما جاء

---

(٣١) (بسط التجربة النبوية) ص ١٧٩.

(٣٢) المرجع السابق. ص ١٩٩، ٢٠٠.



ليغير الواقع والثقافة، والمزاج والعقلية التي كانت سائدة.. لا ليكون مناسباً لها.. وتابعا.. وانعكاسا.. هكذا يقول المنطق.. وبهذا تشهد وقائع التاريخ.

وعلى حين اجتمع الجميع - في كل الديانات السماوية - على أن الشرائع إنما هي «وضع إلهي» نزل بها الوحي على الأنبياء والمرسلين، الذين كلفوا ببلاغها، وبيانها، والتزامها.. يقول الدكتور سروش - تبعاً لهذا التأويل المادي للوحي والدين المغلف - بقشور عرفانية متهرطقة - يقول: إن مصدر الشريعة بشري أيضا، وليس السماء والتنزيل.. يقول:

«إنني أعتقد أن النبي هو المشرع للأحكام الفقهية، وأن النبي نفسه هو المقنن لهذه المسائل، وبالطبع فإن الله تعالى أمضى القوانين التي شرعها النبي»[٣٣]!!

فهو يجعل النبي مصدر الشريعة، ويضع الذات الإلهية في موضع من أمضى القوانين التي شرعها النبي!!.. وفي هذا تكذيب لمحكم القرآن الكريم - الذي لا يقبل أي تأويل - الذي

---

(٣٣) المرجع السابق. ص ٢٠١.



يقطع بأن الشريعة وضع إلهي، أمر الله نبيه باتباعها:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾

(الجاثية: ١٨)

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(المائدة: ٤٩)

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾

(يونس: ١٠٩)

فالشارع هو الله، والرسول مبلغ ومبين ومنفذ للشرع والشريعة، ومتبع لها وإذا شرع فهو يشرع بما أراه الله:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء: ١٠٥)



﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾

(الرعد : ٤٠)

لقد تحدث القرآن الكريم عن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أنزل القرآن على رسوله تنزيلا .. وورد ذلك فى محكم القرآن، فيما يزيد على مائتى آية قرآنية منها ـ على سبيل المثال ـ:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(الإسراء : ١٠٥)

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

(الشعراء : ١٩٣، ١٩٤)

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

(الحديد : ١٦)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(البقرة : ١٧٦)

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

(آل عمران : ٣)

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾

(النساء: ١٣٦)

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ﴾

(النساء: ١٤٠)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾

(الحجر: ٩)

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

(النحل: ٨٩)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾

(الإنسان: ٢٣)

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾

(الإسراء: ١٠٦)

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(البقرة: ٩٧)

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ
بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (النحل : ١٠٢)

لكن الدكتور سروش قد تجاهل هذه الحقيقة التى ألح عليها القرآن الكريم ـ حقيقة أن هذا الوحى القرآنى إنما هو تنزيل.. ووضع نفسه ـ والعياذ بالله ـ مع الذين قالوا :

﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾
(الملك : ٩)

وذلك عندما زعم بشرية الوحى والنبوة والرسالة والدين.. وقال بما قاله أستاذه نصر أبو زيد : إنه نص بشرى، تكون فى الواقع ـ على امتداد ثلاثة وعشرين عاما ـ فهو «ديالكتيك صاعد» وليس تنزيلا هابطاً من السماء.. فالواقع أولا.. والواقع أخيراً.. ولا شىء غير الواقع!!

***

وتأسيساً على دعوى بشرية الشريعة وأرضيتها، أسس الدكتور سروش فكرة ونظرية نسبية هذه الشريعة وتاريخيتها.. أى إنكار الخلود والعموم فى مبادئها ونظرياتها وأحكامها.. فقال :

«والهاجس الأساسى للنبى فى أمر التقنين هو أن هذه الأحكام والقوانين لابد أن تكون عادلة فى أجواء زمانه، وتبتعد عن الظلم فى عرف ذلك الوقت، لا أنها تمثل العدالة المطلقة وفوق التاريخية.. فجميع الأحكام الفقهية فى الإسلام مؤقتة وترتبط بالمجتمع العربى فى صدر الإسلام والمجتمعات المماثلة له» (٣٤).

ويمضى ـ الدكتور سروش ـ فيضيف:

«.. فالنبى قد بعث فى قوم معينين، وفى تاريخ معين، ولا يستوعب جميع الأزمنة والأمكنة.. ويخاطب أناساً معينين لا جميع الناس فى المجتمعات البشرية» (٣٥).

وأمام هذه التاريخية، التى عممها الدكتور سروش على مجمل الرسالة المحمدية ـ وليس فقط الشريعة ـ (التى يعبر عنها بالأحكام الفقهية التى شرعها الرسول) ـ ينكر الرجل ـ وأكاد أقول يكذّب ـ ما جاء بالقرآن الكريم عن أن هذه الرسالة المحمدية، إنما جاءت للعالمين.. وأن الخطاب فيها قد جاء إلى الناس ـ مطلق الناس ـ وكل الناس فى عشرات الآيات.. وأنها

---

(٣٤) المرجع السابق. ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٣٥) المرجع السابق. ص ٢١٩.

قد جاءت البشير والنذير الخاتم والخالد لكل عوالم الخلق عبر الزمان والمكان، وحجة الله البالغة على خلقه، ونوره الساطع على الأكوان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

ولا يدع الدكتور سروش باباً لاحتمال استثناء شيء من القرآن من هذه التاريخية التى تطوى كل مكوناته ـ الذاتية والعرضية ـ فيقول بصيغة القطع والإطلاق والتعميم ـ :

«عندما نقول بتاريخية القرآن، فهذا يعنى أن كل وجوده ومجيئه إلى عالم الطبيعة يرتدى لباس حال تاريخية معينة... سواء ذاتياته أو عرضياته، ومن هذه الجهة لا يختلف الحال بين هذين البعدين»[٣٦].

***

وتبعاً لهذه التاريخية، التى تطوى صفحة القرآن والشريعة، بتطور التاريخ وتغير وقائعه، قطع الدكتور سروش بانتهاء وانقطاع أهم مقومات الشخصية النبوية، وهو ميراث النبوة فى «الولاية».. فقال:

«إن أهم عنصر مقوّم لشخصية النبى هو عنصر «الولاية»،

---

(٣٦) المرجع السابق، ص ٢٣٩.



التى تعكس الحق والحجة الإلهيـة، وتمثل أمر الله، وهذا هو الشىء الذى انتهى وانقطع بشكل أبدى بالخاتمية..» [٣٧].

هكذا حكم الدكتور سروش بأن أمر الله، والحق، والحجة الإلهية، قد انقطعت وانتهت بشكل نهائى وأبدى، عندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وعندما ختمت النبوة.. وذلك بدلاً من أن يقول بتمامها واكتمالها وخلودها.

ونحن نسأل الرجل ـ الناقل لهذه «الهرطقات ـ الهيرمينوطيقية» ـ :

ـ إذا كان أمر الله.. والحق الذى جاء به الدين.. والحجة التى لله على عباده.. قد انقطعت وانتهت إلى الأبد، بوفاة الرسول ﷺ .. فماذا بقى من دين الإسلام؟! .. وما اسم هذا الدين الذى تدين ويتدين به المسلمون منذ وفاة الرسول وحتى الآن؟!..

وبأى حق.. وبأية حجة ندين ونتدين - يا دكتور سروش؟!..

أم أننا نعيش زمن «الفترة» منذ أربعة عشر قرنا؟!..

---

(٣٧) المرجع السابق. ص ٢٧٢.



-٤-

إنكار ختم النبوة

ومن «هرطقات» الدكتور سروش، فى هذا الكتاب «بسط التجربة النبوية» ماذهب إليه من إنكار ختم النبوة والرسالة برسالة رسول الإسلام محمد ﷺ .. فرغم قطع القرآن بأن رسول الإسلام هو خاتم النبيين:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

«الأحزاب: الآية ٤٠»

وقول الرسول «ﷺ»: «إنه ليس بعدى نبى» ــ رواه البخارى والإمام أحمد.

وقوله: «إنه ليس كائن بعدى نبى فيكم»، رواه ابن ماجة..

ومجئ الرسالة المحمدية: عالمية.. وصالحة، بوقوفها عند الثوابت والكليات والمناهج والقواعد ،لكل زمان ومكان.. وتمثيلها «الديوان الجامع» لكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع.. الأمر الذى يعنى، منطقيا أنها خاتمة الرسالات،

التى أكمل الله بها دينه الواحد.

بالرغم من ذلك يذهب الدكتور سروش إلى أن النبوة، بل والرسالة، لم تختم ولم تنقطع!!.

لقد سبق وأنكر اكتمال الحد الأعلى للدين والقرآن.. وأنكر شمول الدين وجامعيته.. كما سبق - فى الهرطقة الكبرى، التى ابتدعها عندما جعل النبى ﷺ مجرد عارف، بلغ مقاما عاليا فى سلم العرفان..

وإذا كانت النبوة والرسالة لا تعدو هذه الدرجة المتميزة فى العرفان.. فما المانع من أن تشهد الحياة المزيد والمزيد من هؤلاء العرفاء، الذين هم عند الدكتور سروش أنبياء ومرسلون؟!.

فقط، طلب الدكتور سروش من هؤلاء الأنبياء والمرسلين الجدد أن لا يعلنوا حقيقة نبوتهم ورسالتهم، وأن يكتموها. لا لأنها غير حقيقية.. ولا لأن البشرية لا تحتاجها.. وإنما - فقط، خوفا على حياتهم من شدة المسلمين وقسوتهم عليهم إن هم أعلنوا هذه «الحقيقة» التى قررتها «هرطقة» الدكتور سروش!!.

هكذا ذهب الدكتور سروش إلى إعلان:

«أن التجربة النبوية، أو التجربة الشبيهة بتجربة الأنبياء لم

تنقطع بصورة كاملة، بل هى باقية فى روح وطبيعة البشر» ثم تساءل قائلا:

«وهنا يثار هذا السؤال:

- هل يستطيع كل شخص أن يكون رسولا؟؟

ثم أجاب الدكتور سروش:

«فى الواقع ينبغى الإذعان إلى هذه الحقيقة، وهى أن كل شخص بإمكانه أن يكون نبيا لنفسه.. وعلى الأشخاص الذين يعيشون هذا الإحساس.. أن يكتموا هذا الشعور، ولا يظهروا هذه الحالات للناس.. فالمجتمع الدينى الإسلامى سيتصدى لهم بقسوة وشدة لو أعلنوا نبوتهم؛ لأن النبى قال: «لا نبى بعدى» (٣٨).

«إن التجربة النبوية مستمرة وباقية فى مجمل الصيرورة التاريخية فى المجتمع البشرى؛ لأن تجليات الله لا تنفد، ولا يمكن القول إن الله تعالى تجلى لنبى الإسلام ثم أوصد باب التجلى على نفسه..» (٣٩).

---

٣٨ - المسند الجامع - النووى.

٣٩ - بسط التجربة النبوية ص٢٠٥ - ٢٠٧.

هكذا رتب الدكتور سروش هذه «الهرطقة» الكبرى على الهرطقة الأكبر.. فهو قد جعل النبوة تجربة بشرية عرفانية، وليست اصطفاء إلهيا معجزا ومفارقا للواقع.. ومن ثم فتح الباب أمام استمرار هذه التجارب العرفانية المتميزة، التي سماها نبوة ورسالة ووحيا..

فقط.. دعا الرجل هؤلاء الأنبياء والرسل الجدد إلى التحلي بالجبن، وكتمان رسالتهم خوفا من شدة المسلمين وقسوتهم.. ولم يقل لنا كيف يكون هؤلاء العارفون الجبناء، الذين يكتمون تجليات الله، ويهملون هداية البشرية.. كيف يكونون أنبياء ومرسلين وإذا كان الدكتور سروش قد علل استمرار النبوة والرسالة بأن الله، الذي لا تنفد تجلياته. لا يمكن أن يوصد باب هذه التجليات بوفاة رسول الإسلام ﷺ فهل عدمت البشرية أن يجد فيها باريها عرفاء غير جبناء؟!.

وإذا كان الدكتور سروش قد قال - من قبل - إن رسول الإسلام لم يأت إلا بالحد الأدنى للقرآن.. أفما كان رفع هذا الحد الأدنى إلى المستويات التي تعكس مستجدات القرون التي تطاولت، بحاجة إلى نبي غير جبان يزيد من حجم هذا القرآن، وفق نظرية الدكتور سروش؟!.

وإذا كانت كل هذه الجرأة على هذه «الهرطقات» قد وافت الدكتور سروش، في وسط ديني متشدد، فكيف عزت هذه الجرأة على «أنبياء» الدكتور سروش، الذي قال إن ظهورهم دائم ومستمر لاستمرار تجليات الله التي لا تنفد؟!.

هكذا خان المنطق الدكتور سروش.. وهكذا كذب الرجل على الله، الذي قال عن رسول الإسلام إنه «خاتم النبيين»، وكذب على الرسول الذي قال«إنه لا نبي بعدي».

ولا حول ولا قوة إلا بالله!

***



-٥-

إنكار العقلانية والبرهانية على القرآن

وينطلق الدكتور سروش من الفلسفة الوضعية التى تنكر عقلانية الدين، وتنفى منطقيته وبرهانيته، إلى نفى البرهانية والاستدلالية عن القرآن الكريم وعن كل الكتب السماوية، وعن مطلق الدين، فيقول:

«إن خطاب الأنبياء منطلق نوعا ما من موقع الأمر، ومن مرتبة أعلى، وفى الغالب يخلو من الاستدلال.. ولو ألقينا نظرة، على القرآن، والكتب السماوية الأخرى، فإننا لن نعثر على عملية برهنة واستدلال إلا نادرا»[40]

وبهذا الكلام الغريب والعجيب يتجاهل الدكتور سروش الحقائق التى تقول إن القرآن الكريم قد تحدث عن العقل والعقلانية، باللفظ فى مئات الآيات:

- تحدث عن فعل العقل ـ باللفظ ـ فى ٤٩ آية.
- وتحدث عن العقلانية ـ بلفظ القلب ـ فى ١٣٢ آية.

---

٤٠ - بسط التجربة النبوية ص ٢٧١، ٢٧٧، ٢٧٨.

- وتحدث عن العقلانية ـ بلفظ اللب ـ فى ١٦ آية .
- وتحدث عن العقلانية ـ بلفظ النُهى ـ فى آيتين .
- وتحدث عن العقلانية ـ بلفظ الفكر والتفكر ـ فى ١٨ آية .
- وتحدث عن هذه العقلانية ـ بلفظ الفقه ـ فى ٢٠ آية .
- وتحدث عنها ـ بلفظ التدبر ـ فى أربع آيات .
- وبلفظ الاعتبار فى سبع آيات .
- وبلفظ الحكمة فى ١٩ آية .
- واستخدم القرآن مصطلح البرهان فى ثمانى آيات .

أى أننا أمام ٢٧٥ موضعاً قرآنياً جاء الحديث فيها عن العقل والاستدلال العقلى والبرهانى باللفظ . . وذلك فضلا عن المواضع - التى تعز على الإحصاء والتى استخدم فيها القرآن الكريم الاستدلال العقلى والبرهانى دون هذه المصطلحات . . وذلك مثل :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾

(الزمر : ٣٦)

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

(الأنبياء : ٢٢)



﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

(الإسراء: ٩٩)

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾

(يس: ٨١)

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

(يس: ٧٨، ٧٩)

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(النساء: ٨٢)

وهكذا جاءت معجزة القرآن الكريم معجزة عقلية، تستنفر العقل وتستحثه على النظر والتفكر والتدبر، لا معجزة مادية، تدهش العقل فتشله عن النظر والتدبر والتعقل - كمعجزات الرسالات السابقة التي جاءت إبان طفولة العقل البشري.

ولهذه الحقيقة - حقيقة تميز القرآن والإسلام بالعقلانية - تواترت شهادة جمهور غفير من العلماء - المسلمين وغير المسلمين - على «البنية العقلية» للقرآن والإسلام.

وإذا كان الدكتور سروش لم يقرأ - كمثال على هذه الشهادات - قول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده:

«لقد كانت الأمم تطلب عقلا في دين فوافاها.. ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبى مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة - إلا من لاثقة بعقله وبدينه - أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحى إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه من فهم معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها.

فالله يخاطب - فى كتابه - الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولاحد.. والقرآن دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم. فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها.. والإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى، والفكر

الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى، فلايدهشك بخارق للعادة ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.

ولقد مهد الكتاب وصحيح السنة بين يدى العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..»[41].

هكذا شهد فيلسوف التجديد الإسلامى بالعصر الحديث، وأكبر من تكونت من حوله مدرسة فكرية، لاتزال فاعلة في واقعنا الفكرى المعاصر، على امتداد عالم الإسلام.

وإذا كان الدكتور سروش لم يقرأ الشهادات الإسلامية التى تواترت على عقلانية القرآن والإسلام.. فهلا قرأ نظائرها الغربية التى كتبها لا هوتيون وفلاسفة ترجموا القرآن وخبروه، وألفوا فى تراث الإسلام وحضارته، وشهدوا على عقلانية الإسلام ومنهم - كمنوذج لهم -

---

41 - (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ3 ص461، 356، 165، 277، 281، 282، وانظر كتابنا (مقام العقل فى الإسلام) ص144 - 166 طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة 2007م



المستشرق الفرنسي «إدوارد مونتيه» (١٨٥٦ - ١٩٢٧م) الذى قال:

«إن الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، وإن تعريف الأسلوب العقلى **Rationa Lism** بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق.

إن لدين محمد كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أسس المنطق والعقل. إن الايمان بالله والآخرة - فى الإسلام - يستقران فى نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق ويلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن»[٤٢].

هلا قرأ الدكتور سروش - صاحب الثقافة الواسعة - شيئا من هذه الشهادات التى تواترت فى التراث الإسلامى والتراث الغربى - قبل أن يقول:

---

٤٢ - سير توماس أرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص٨٩ ترجمة د. حسن ابراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة ١٩٧٠م.



«إننا لا نعثر فى القرآن» على عملية برهنة واستدلال إلا نادراً»؟!

لقد كاد فلاسفة الإسلام أن يجمعوا - انطلاقا من القرآن - على أن أول واجب على الإنسان هو النظر - الذى ورد مصطلحه فى القرآن فى عشرات الآيات.. بل وقال فريق من فلاسفة الإسلام إن أول واجب على الإنسان هو «الشك المنهجى» لأنه هو الطريق إلى اليقين، حتى لقد جعلوا من هذا «الشك المنهجى» علماً يجب طلبه.. وقال الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ ٧٨٠ - ٨٦٩م) فى ذلك:

«فاعرف مواضع الشك وحالاته الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً.. فلم يكن يقينا قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك»[٤٣].

وحتى قال الحارث المحاسبى (١٣٥ - ٢٤٣هـ ٧٨١ -

---

٤٣ - الجاحظ (كتاب الحيوان) جـ٦ ص٣٥ - ٣٧ تحقيق: عبدالسلام هارون - طبعة القاهرة الثانية.



٨٥٧م) - الذى جمع بين العرفان والنصوص «وبالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم. وبه أقام الله على البالغين للحُلم الحجة، وإياهم خاطب من قبل عقولهم ووعد وتوعد، وأمر ونهى، وحض وندب»(٤٤).

وحتى قال حجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م) - الذى جمع عقل الفيلسوف إلى قلب الصوفى.

«إن مثال العقل: البصر السليم من الآذاء. ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. وإن العقل أولى باسم النور من العين.. بل الحق أنه يستحق الاسم دونها وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نوراً.. ولقد تحقق أهل السنة أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول..

---

٤٤ - الحارث المحاسبى (مائية العقل وحقيقة معناه) ص٢٠١ وما بعدها - و(فهم القرآن) ص٢٦٦ - ٢٧٧ دراسة وتحقيق: حسين القوتلى طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م.



فالعقل مع الشرع نور على نور»[٤٥].

هلا قرأ الدكتور سروش شيئاً من ذلك، قبل أن يقول «كلامه» الغريب والعجيب الذى ينفى فيه البرهانية والعقلانية والاستدلال عن القرآن الكريم؟!

* * *

ووثيق الصلة بهذه القضية - قضية الموقف الإسلامى من تحرير العقل الإنسانى - إلحاح الدكتور سروش على مقولة: إن العقل إنما تحرر بختم النبوة[٤٦].. على حين قد رأينا، انطلاقا من القرآن الكريم، وشهادات العلماء - في الشرق والغرب - أن العقل إنما تحرر بالقرآن والإسلام، وبنبوة رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى قال: «عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً» - رواه الدارمي - وهو حديث يفتح أمام الإنسانية أبواب التعرف على القرآن الكريم، باعتباره «ديوان»

٤٥ - الغزالى (الاقتصاد فى الاعتقاد) ص٢، ٣ - طبعة صبيح - القاهرة و(مشكاة الأنوار) صـ٣٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م و(رسالة الغزالى إلى ملك شاه فى العقائد) ص١٩ طبعة القاهرة ١٩٠٧م.

٤٦ - (بسط التجربة النبوية) ص٢٨٥، ٢٨٦.



العقل والحكمة.. والعلم.

ولأن القرآن الكريم هو الذى حرر ملكات الإنسان وطاقاته - ومنها ملكة العقل.. وذلك عندما وضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.. وعندما أحيا هذه الملكات والطاقات:

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

(الأعراف: ١٥٧)

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

فإن الرسول - الذى نزل عليه هذا القرآن هو الذى أجاب الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - عندما سأله عن سنته؟.. فقال - ﷺ: «والعقل أصل دينى»[٤٧].

هكذا كان تحرير العقل بنبوة محمد - ﷺ - وبالقرآن الذى أنزله الله عليه.. وبالسنة النبوية التى بينت هذا القرآن.

ولم يكن تحرير العقل بختم هذه النبوة - كما زعم الدكتور عبدالكريم سروش!!

---

٤٧ - أحاديث الإحياء - العراقى.



(٦)
الدعوة لاختزال الإسلام

وفي كتاب الدكتور سروش - (بسط التجربة النبوية) - إلحاح على علمنة الدولة والسياسة والمجتمع والقانون.

فهو يبدأ باختزال التمدن الإسلامي في الفقه، مستشهداً بعبارة الدكتور محمد عابد الجابري (١٣٥٥ - ١٤٣١هـ - ١٩٣٦ - ٢٠١٠م) التي يقول فيها: «إذا كان التمدن اليوناني يمثل تمدنا فلسفيا، فإن التمدن الإسلامي هو تمدن فقهي».

ثم يعقب الدكتور سروش على عبارة الجابري بقوله:

«وهذا الكلام له جانب كبير من الصحة، فالتمدن الإسلامي ينتج فقهاء أكثر مما ينتج فلاسفة»[٤٨].

وهذه المقولات للجابري ولسروش - لا مصداقية لها.. فالفلسفة اليونانية لم تنفرد بالتمدن اليوناني، وإنما زاملها القانون الروماني، والآداب والفنون الإغريقية والرومانية.

---

٤٨ - بسط التجربة النبوية ص٣١٠.

أما التمدن الإسلامى، فإنه لم يقف عند الفقه - بل إن الفقه، فى منظومة العلوم الإسلامية، هو من علوم الفروع - ولذلك بنى التمدن الإسلامى على العقائد.. والفلسفات.. والتصوف.. وأصول الدين.. وأصول الفقه.. والعلوم التجريبية الكونية.. وتطبيقاتها.. ومناهجها.. وعلى الآداب والفنون.. لقد بنى هذا التمدن الإسلامى على علوم السماء والأرض.. على ثمرات قراءة العقل والقلب لكتابى الوحى والكون.. ولقد تجلت هذه الحقيقة - التى تميز بها التمدن الإسلامى - فى إبداعات علماء الإسلام.

● فابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨م) لم يكن - فقط - الفقيه الذى يفزع الناس إلى فتواه فى الفقه.. وإنما كان - أيضا - الفيلسوف.. والمتكلم.. واللغوى.. والطبيب، الذى يفزع الناس إلى فتواه فى هذه العلوم كما يفزعون إلى فتواه فى الفقه وفلسفة اختلاف الفقهاء.

● وابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ - ٩٨٠ - ١٠٣٧م) كان «الشيخ الرئيس» فى الشرعى.. والمدنى فى الإلهيات.. والطبيعيات.. فى التصوف.. وعلوم الأوائل.. وفى الهيئة.. والنبات.. والحيوان.

● وأبو منصور البغدادى (٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) هو الذى اشتهرت إبداعاته فى أصول الدين.. وفى الحساب.. والهندسة.. حتى لقد قالوا: «إنه كان يدرّس فى سبعة عشر فناً».

● وعمر الخيام (٥١٥هـ ١١٢١م) هو الذى جمع - فى إبداعاته - بين اللغة.. والشعر.. والتصوف.. والفلسفة.. والفقه.. والتاريخ.. والهندسة.. والفلك.. والرياضيات.

● والفخر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦هـ ١١٥٠ - ١٢١٠م) هو الذى تبوأ عرش الإمامة فى علوم الدين والدنيا جميعا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى المعقول والمنقول.. وعلوم الأوائل».

● وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م) هو الذى جمع بين الفلسفة.. والتصوف.. والكلام.. والفقه.. والأصول.. فكان - ولا يزال «ظاهرة فكرية» عامة وشاملة، جامعة بين العمق والموسوعية.

هكذا أفصحت ظاهرة «تكامل العلوم» فى إبداعات علماء الإسلام عن حقيقة قيام التمدن الإسلامى على تكامل العلوم

والفنون.. وليس - فقط - على الفقه، كما زعم الجابرى وسروش.

وبعد دعوى اختزال التمدن الإسلامى فى الفقه.. أخذ الدكتور سروش فى الإلحاح على إخراج الحياة الإسلامية المعاصرة من هذا الفقه.. فدعى إلى «الخروج من الفقه كعلم دينى إلى الحلول العقلانية للمشكلات الاجتماعية»[49].. وكأن هذا الفقه الإسلامى غير عقلانى.. هو هو الذى يعقد القرآن بين فقه الواقع وفقه الأحكام - بدءا بفقه الواقع - معتمدا على الآليات العقلية فى فقه النصوص.. وعلى العلوم الاجتماعية والإنسانية فى فقه الواقع.. مع إضافة القياس والاستصحاب والاستصلاح والمصالح المرسلة إلى النصوص.

وإمعانا فى هذا الاتجاه، دعا الدكتور سروش إلى التخفف - فى السياسة والحكومة - من الدين «لأن الحكومة - (كما يقول) وليدة المجتمع.. وحاجتها إلى العلوم أكثر من حاجتها إلى القواعد الأخلاقية والحقوقية»[50].

ولقد نسى الرجل أن بدعته الأكبر قد جعلت الدين وليد

49 - المرجع السابق ص١٤١.

50 - المرجع السابق ص١٧٠، ١٧١.



المجتمع، الأمر الذى يؤلف بينه وبين الحكومة ! !

كما تجاهل أنه - بهذه الدعوة إلى استبعاد القواعد الأخلاقية من ميادين ومعايير السياسة والحكومة - إنما يستبعد طوق النجاة الذى يحتاجه عالمنا المعاصر.. فلقد أقامت النهضة الأوروبية تمدنها على «الحداثة» التى جعلتها دينا طبيعيا، قام على العقل والعلم، وأحلته محل الدين السماوى.. وبعد أن أدى ذلك إلى اختزال المسيحية وتهميشها، واستبعادها من الحياة العامة والخاصة - الفردية.. والأسرية.. والتربوية - أفلست هذه الحداثة عندما عجزت عن الإجابة على الأسئلة الطبيعية للإنسان، والتى كان الدين يجيب عليها.. ففقد الإنسان الأوروبى - والغربى - النجم الذى كان يرشده ويهديه - نجم الدين.. ونجم الحداثة معا وانزلق هذا الإنسان إلى عدمية وتفكيكية وفوضوية «مابعد الحداثة» حتى لقد افترسته أمراض اللا أدرية والاغتراب.. حتى أقبل على عبادة الشياطين والأرواح.. والأشباح.. وروحانيات الديانات الوضعية.. وأيضا على الإسلام.

ثم إن مقابلة الدكتور سروش بين العلوم الاجتماعية والإنسانية وبين الفقه الإسلامى والقواعد الأخلاقية هى مقابلة

غير موضوعية وغير واعية !

فالفقه الإسلامى هو علم من العلوم الاجتماعية، وليس غريبا عن هذه العلوم حتى يوضع مقابلا لها .. إنه علم اجتماعى مرجعيته الدين والواقع معا .

ولذلك، فإن هذا الفقه الإسلامى قد تفرد بالجمع بين الأحكام الحافظة للحقوق والمنظمة لها، وبين القواعد الأخلاقية التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه الحقوق .

ولوقرأ الدكتور سروش شهادة الفقيه القانونى الأوروبى «ديفيد سانتيلانا» (١٨٤٥ - ١٩٣١) وهو الحجة فى الفقه الإسلامى وفى القوانين الغربية الوضعية - لو قرأ شهادته للفقه الإسلامى بالجمع بين هذين البعدين .. وامتيازه بذلك على القانون الغربى، لما ظلم الفقه الإسلامى، ولما دعا إلى إخراجه من الحياة السياسية والاجتماعية .

لقد قال «سانتيلانا» :

«إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف - (فى الغرب) - هو : مجموعة من القواعد السائدة التى أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه» وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم .



إلا أن التفسير الإسلامى للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامى هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضا. فالنظام القضائى والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التى يستمد منها المجتمع الإسلامى وجوده وتعاليمه، فكل مسألة قانونية إنما هى مسألة ضمير.. والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما.. والأخلاق والآداب فى كل مسألة، ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا..»[51]

لقد فقه هذا المستشرق - الذى درس القانون الإسلامى والقانون الرومانى فى الجامعات الغربية والإسلامية - فقد تميز الفقه الإسلامى بالجمع بين القانون - كعلم اجتماعى - وبين الأخلاق - كجزء من الدين - .. ورأى فى هذا التميز امتيازا

---

٥١ - سانتيلانا (القانون والمجتمع) - بحث منشور بكتاب (تراث الإسلام) ص٤١١، ٤٣٨، ٤٣١ ترجمة جرجس فتح الله - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م وانظر كتاب (الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية) ص٣٣ - ٤١ طبعة دار الشروق - القاهرة ١٤٢٧هـ سنة ٢٠٠٣م.



لهذا الفقه الإسلامى على القانون الوضعى الغربى.

وهذا الفقه الذى فقهه المستشرق سانتيلانا هو الذى عجز عنه - أو تجاهله - الدكتور سروش، فدعا.. فى السياسة والحكومة والقانون - إلى التخفف من الدين، وإلى الخروج من الفقه الإسلامى.. ومن القواعد الأخلاقية للإسلام.

***



(٧)
موقف شعوبى من العربية

وللدكتور سروش - فى كتابه هذا (بسط التجربة النبوية) - موقف غير ودى، وغير موضوعى من اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - يذكرنا بالنزعات الشعوبية.. وهذا الموقف يوحى باتهامه العربية بالفقر[٥٢] مع أنها قد وسعت بلاغة القرآن، وإعجازه، وبيانه، وإشاراته، ومجازاته، واستعاراته، وكناياته.. ووشت بأسراره التى لا تنفد.. ومثلت الكنز اللانهائى لهذه الأسرار - وهى إمكانات لا أظن أن لغة أخرى تنافسها فيها، أو تقترب منها فى هذا المضمار - وذلك لخصائصها التى هى الأنسب لخصائص الذكر الحكيم والنبأ العظيم.

لقد تعارف علماء اللغات على أن هذه اللغات «وضعية»، تعارف عليها البشر.. لكن الكثيرين من عظماء علماء العربية تساءلوا هل هذه اللغة التى وسعت «المطلق» «المعجز» هى «وضعية»؟.. أم «توقيفية»؟؟

---

٥٢ - (بسط التجربة النبوية) ص٩٦ - ٩٨.

«مخلوقة» هى أم «قديمة»[٥٣]؟

كذلك استوعبت العربية تراث الحضارات القديمة - إغريقية ورومانية وفارسية وهندية ومصرية - على اختلاف علومها وفنونها.. كما استوعبت مواريث النبوات السابقة وأصبحت لغة العلم العالمى والفكر الإنسانى وديوان الفلاسفة والمفكرين والعرفاء لأكثر من عشرة قرون.

* * *

بل لقد امتد هذا الموقف غير الودى - للدكتور سروش - من اللغة العربية إلى الحد الذى ادعى فيه دعواه غير المسبوقة - حتى فى إطار النزعات الشعوبية - أن عربية القرآن الكريم هى أمر عرضى - وليست من ذاتيات القرآن - وأن «بالإمكان أن يرد النص المقدس بلغة أخرى» غير العربية.[٥٤]

وهذا خطأ فاحش وقع فيه الدكتور سروش.. فالجائز والممكن هو ورود معانى القرآن الكريم بغير العربية، أما

---

٥٣ - ابن جنى (الخصائص) ص٤٥، ٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣م وانظر كتابنا (المنهاج العقلى فى دراسات العربية) ص٤٤ - ٥٢ طبعة نهضة مصر - سلسلة فى التنوير الإسلامى - القاهرة سنة ١٩٩٨م.

٥٤ - (بسط التجربة النبوية) ص٢٦.



نصه، فعربيته هى السبيل الوحيد لتجلى ما فيه من إعجاز.. وعندما يقول الله سبحانه وتعالى :-

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾

(سورة طه : ١١٣)

فإن ذلك لا يعنى - فقط - مجيئه بلسان القوم العرب الذين بدأت فيهم الرسالة والوحى.. وإنما يعنى العلاقة الخاصة بين عروبة النص وبين ما فيه من إعجاز.

ولقد أجمعت الأمة - على اختلاف ألسنة شعوبها - وأجمع العلماء غير المسلمين الذين تعاملوا مع القرآن - على أن فقه العربية إنما هو شرط فقه إعجاز القرآن الكريم.

* * *

بل إن مجازفات الدكتور سروش إزاء عروبة القرآن الكريم لتتجاوز المتعارف عليه إلى حد يوحى بإنكار نزوله باللسان العربى.. والإدعاء بأن عروبته طارئة عليه.. فيقول: «إن القرآن تمظهر وتجلى باللغة العربية التى كانت لغة المحيط الثقافى للرسول»[٥٥]

---

٥٥ - المرجع السابق. ص١٩٥.



وهذه الدعوى - التي تعني أن القرآن لم يكن عربياً، ثم تمظهر وتجلى باللغة العربية التي كانت لغة المحيط الثقافي للرسول.. تنقض الدعوى الشاذة للدكتور سروش: أن القرآن «منتج نبوي»، إذ لو كان منتجاً نبوياً، أفرزه غليان شخصية النبي العارف، لما كان هناك شك في أصالة عربيته، إذ لم يكن هناك لغة أخرى للرسول - ﷺ - غير العربية.

ولكنها تناقضات «الهرطقات» عند الدكتور سروش!

* * *

هكذا سار الدكتور عبدالكريم سروش على طريق التأويل، متحللا من ضوابطه اللغوية والدينية.. فسقط في نفق التأويل الوضعي الغربي اللاديني «الهيرمينوطيقا» Hermeneutics - الذي يفرغ الدين من حقائق الدين.. والذي لا يستبقي من الدين سوى «أوعية الألفاظ» - الوحي.. النبوة.. الرسالة - ليصب فيها المضامين المادية واللادينية، التي تثير العجب، بل والسخرية في كثير من الأحيان.

وحتى يستبيح هذا التأويل - الهيرمينوطيقا - حرمات النصوص على هذا النحو العبثي اخترع أهله نظرية «موت المؤلف»، لتكون قراءة النص ليست بحثا عن مقاصد المؤلف



والمعانى التى أرادها للنص الذى أبدعه.. وإنما ليكون القارئ - أى قارئ وكل قارئ - مطلق الحرية فى أن يريد بالنص ما يشاء!!

ولقد طبق أنصار «الهيرمينوطيقا» نظرية «موت المؤلف» هذه على النصوص الدينية، فاستباحوها، وأولوا حقائقها على هذا النحو الغريب والعجيب الذى رأيناه للدكتور عبدالكريم سروش.. ولأساتذته الذين أخذ عنهم - من مثل نصر أبوزيد، وحسن حنفى، ومحمد أركون.

* * *

● لقد جاءت المادية الجدلية - فى الماركسية - لتقول:

«إن المادة مستكفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها.. وأن الفكر كله - بما فيه الدين - هو انعكاس للواقع الموضوعى.. وعلى هذا الواقع الموضوعى يرتفع بناء فوقى، سياسى وقانونى، واتجاهات مختلفة للفكر الاجتماعى.. جميعها انعكاس للبناء المادى والواقع الموضوعى»(٥٦)

---

٥٦ - (الموسوعة الفلسفية) وضع مجموعة من العلماء السوفييت - بإشراف: م. روزنتال ب. يودين ترجمة: سمير كرم - طبعة بيروت سنة ١٩٧٤.



وبذلك فلسفت نظرية عزل السماء عن الأرض، وشرعت لنظرية موت مصدر النصوص الدينية وإهدار الضوابط لتأويل هذه «النصوص».

● وجاء الدكتور نصر أبوزيد، فانطلق من الفلسفة المادية الماركسية - المادية الجدلية.. والمادية التاريخية - ليفسر الإسلام والوحى والنبوة.. فقال:

«إن النبوة تجربة خاصة، وحالة من حالات الفعالية الخلاقة، غير مفارقة للواقع، ولا متجاوزة لقوانينه.. إنها قوة مخيلة، تكون فى الأنبياء أقوى منها عند من سواهم من البشر.. فالنبى يأتى على رأس قمة الترتيب.. يليه الصوفى.. ثم يأتى الشاعر فى نهاية الترتيب.

ولقد كان النبى نتاجا للواقع الذى عاش فيه.

وإن النص القرآنى نص بشرى، تشكل من خلال الواقع الثقافى.. فكان الواقع فاعلا والنص منفعلا ومفعولا، فهو منتج ثقافى.. وديالكتيك صاعد، لم يسبق له وجود ميتافيزيقى على تكونه فى الواقع.. فالواقع أولا.. والواقع ثانيا.. والواقع أخيرا.

كما أن القران - كخطاب بشرى - هو خطاب تاريخى، لا



يتضمن معنى مفارقاً جوهرياً ثابتاً . .»[٥٧]

● وسار الدكتور حسن حنفى على هذا الطريق . . فقال :

«إن النبوات ، التى تتحدث عن إمكانية اتصال النبى بالله ، وتبليغ رسالة منه ، هى فى الحقيقة مبحث فى الإنسان كحلقة اتصال بين الفكر والواقع . . فهى ليست غيبية ، بل حسّية . . والمعارف النبوية دنيوية حسّية .

وصفات الله السبع هى فى حقيقة الأمر صفات إنسانية خالصة ، فالإنسان هو العالم ، والقادر ، والحى ، والسميع ، والبصير ، والمريد ، والمتكلم . . وهذه الصفات فى الإنسان ومنه على الحقيقة ، وفى الله وإليه على المجاز .

وذات الله المطلق هى ذاتنا نحو المطلق . . فالإنسان يخلق جزءاً من ذاته ويؤلهه أى أنه يخلق المؤله على صورته ومثاله . . ثم يعبده . . فالذات الإلهية هى الذات الإنسانية فى أكمل صورها . . وتصور الله على أنه موجود كامل هو فى الحقيقة تعبير عن رغبة ، وليس حكماً على وجود فى الخارج . . وأى

---

٥٧ – د. نصر حامد أبوزيد (مفهوم النص) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م. و(نقد الخطاب الدينى) طبعة القاهرة ١٩٩٢م وانظر كتابنا (التفسير الماركسى للإسلام) طبعة دار الشروق – القاهرة سنة ١٩٩٦م.



دليل يكشف عن إثبات وجود الله إنما يكشف عن وعى مزيف .

والعقل ليس بحاجة إلى عون ، وليس هناك ما يند عن العقل .. ويمكن معرفة الأخلاق بالفطرة .. فالوحى لا يعطى الإنسانية شيئاً لاتستطيع أن تكتشفه بنفسها من داخلها .

وإن مهمتنا أن ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهى القديم إلى طور إنسانى جديد ، فبدلا من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله ، تكون متمركزة على الإنسان .. وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان .

إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة ، ومن الإيمان إلى العقل ، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال ، وينشأ المجتمع العقلى المستنير »[٥٨]

***

---

٥٨ – د. حسن حنفى (من العقيدة إلى الثورة) جـ٢ ص٦٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م. و(دراسات إسلامية) ص٣٠٠، ١٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٨٢م . وانظر كتابنا (قراءة النص الدينى بين التأويل الغربى والتأويل الإسلامى) طبعة مكتبة الشروق الدولية القاهرة سنة ٢٠٠٦م.



● وجاء الدكتور عبدالكريم سروش - معلنا انطلاقه من هذه المدرسة ليغلف التفسير المادى للوحى والنبوة والدين بقشور «عرفانية باطنية».. وليقول:

«لقد كان النبى يمارس رياضة مدة أربعين سنة، ثم تجلت له حقيقة النبوة، وصار منوراً كبوذا-(!!)

وكما توسوس الشياطين للناس، فإن الأنبياء بدورهم يتعرضون لوسوسة الملك.

ولقد كانت شخصية النبى بمثابة الخزانة التى تحوى أسراراً وعلوماً، وهذه الشخصية عندما تغلى وتفور يطفح الوحى الإلهى من مطاوى كلماتها.. فالوحى هى الكشف.. وهو نوع من الإدراك الخاص بالنبى.. وما يقدمه النبى من معارف الوحى للآخرين هو عبارة عن غليان بركان وجوده المؤيد والمسدد.. ولذلك فإن هذا الوحى تابع للنبى، وليس النبى بتابع للوحى.. فالوحى منتج نبوى بشرى.. والنبى هو المحيط بجميع الوجودات.. وهو الفاعل والآمر، لا المنفعل.

والقرآن - بكل وجوده وذاتياته وعرضياته - نص تاريخى.. ونحن لا نعثر فيه على عملية برهنة

واستدلال إلا نادرا.

وجميع الأحكام الفقهية فى الإسلام - الشريعة الإسلامية - مؤقتة، وترتبط بالمجتمع العربى فى صدر الإسلام.. ولقد كان النبى هو المشرع.. والله يمضى تشريعات النبى.

وكل ما يتعلق بولاية النبى، من الحق والحجة الإلهية وأمر الله، قد انتهى وانقطع بوفاة النبى وختم النبوة»!!

* * *

تلك هى قصة التأويل المادى - والعبثى لحقائق الدين.

وهذا هو موقع الدكتور عبدالكريم سروش من هذا التأويل العبثى للوحى والنبوة والدين.. فهى «مدرسة» تدرس هرطقاتها فى عدد من جامعات الإسلام.

وهكذا أصبح التأويل العبثى «فنان» ينافس «الجنون» فى القرن الواحد والعشرين!!؟





والتوصية هي :

١ - تداول الكتاب ؛ لأن جمهوره من خاصة المثقفين .. ولأن لأفكاره نظائر منشورة بمصر .. وبعضها يدرس في بعض الجامعات !

٢ - ونشر هذه الدراسة النقدية ملحقا بمجلة الأزهر ، تحصينا للعقل المسلم ضد هذه الهرطقات .

والله ولي التوفيق

دكتور / محمد عمارة

المصادر والمراجع

- آرنولد - سير توماس: (الدعوة إلى الإسلام) ترجمة: د. حسن أبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوى - طبعة القاهرة ١٩٧٠م.
- ابن جنى: (الخصائص) طبعة القاهرة سنة ١٩١٣م.
- ابن رشد: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٩٩ (تهافت التهافت) طبعة القاهرة ١٩٠٣م.

(مناهج الأدلة فى عقائد الملة) دراسة وتحقيق: د. محمود قاسم - طبعة مكتبة الأنجلو - القاهرة.

- الأفغانى - جمال الدين: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.



● البيضاوى: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٦م.

● الجاحظ: (كتاب الحيوان) تحقيق: عبدالسلام هارون - طبعا القاهرة، الثانية.

● الجرجانى - الشريف: (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

● الجرجانى - عبدالقاهر: (إعجاز القرآن) تحقيق: محمود محمد شاكر - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

● الحارث المحاسبى: (مائية العقل ومعناه) تحقيق: حسين القوتلى - طبعة بيروت سنة ١٣٩٨هـ سنة ١٩٧٨م.

● د. حسن حنفى: (من العقيدة إلى الثورة) طبعة القاهرة ١٩٨٨م.

(دراسات إسلامية) طبعة بيروت سنة ١٩٨٢م.

● سانتيلانا - ديفيد: (القانون والمجتمع) بحث منشور

ضمن كتاب (تراث الإسلام) ترجمة: جرجس فتح الله - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م

- سيزا قاسم (القارئ والنص: العلامة والدلالة) طبعة القاهرة ٢٠٠٢م.
- د. عبدالرحمن بدوى: (مذاهب الإسلاميين) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.
- د. عبدالكريم سروش: (بسط التجربة النبوية) ترجمة: أحمد القبانجى - طبعة بيروت سنة ٢٠٠٩م.
- د. على حرب: صحيفة (الحياة) - لندن فى ١٨/١١/١٩٩٦م.
- الغزالى - أبوحامد (الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة صبيح - القاهرة.

(مشكاة الأنوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

(رسالة الغزالى إلى ملك شاه فى العقائد) طبعة



القاهرة سنة ١٩٠٧م.

- محمد عبده: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.. وطبعة دار الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٦م.
- د. محمد عمارة: (قراءة النص الدينى بين التأويل الغربى والتأويل الإسلامى) طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ٢٠٠٦م.

(التفسير الماركسى للإسلام) طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(مقام العقل فى الإسلام) طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

(الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية) طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٤٢٧هـ سنة ٢٠٠٣م.

(المنهاج العقلى فى دراسات العربية) طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٨.



- د. نصر حامد أبوزيد : (مفهوم النص) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(نقد الخطاب الديني) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

- موسوعات :

(الموسوعة الفلسفية) - وضع عدد من العلماء السوفييت بإشراف : أ. روزنتال ، ب. يودين - ترجمة سمير كرم - طبعة بيروت ١٩٧٤م.

***





الفهـــرس

AL AZHAR

MAGAZINE

المتن ٧٠ جم

الغلاف ١٥٠ جم كوشيه